

من رسائل الأب صفرونيوس



أنواعه وعلاجه في الحياة الروحية الأرثوذكسية

www.coptology.com



من رسائل الأب صفرونيوس



أنواعه وعلاجه في الحياة الروحية الأرثوذكسية

www.coptology.org

تقديـم

"أمَّا الخائفونَ وغيَر المؤُمنينَ ... فَنَصِيبَهُم في البُحَيرةِ المُتَقِدَةِ بِنَارٍ وكِبريتٍ" (رؤ ٢١ : ٨)

القديس صفرونيوس في رسالتهِ هذه يُعالج مشكلةً جوهريةً تعترض المؤمن في جهاده الروحي. فهو يحذر الإخوة المبتدئين من ضربة الخوف – ويرشدهم لكي يميزوا بين مخافة الله – التي يُسميها (خوف المحبة)، وهو الخوف من الإبتعاد عن يسوع – وبين أنواع الخوف الأخرى المُفسدة والخطرة على الحياة.

ثم يصف وسائل التغلب على الخوف والوساوس، ويوضح لنا محبة الله الفائقة، حتى لا يقتني أحدٌ في قلبه رعباً من الله، بل يُلازمه رجاءٌ يغلب به كل يأسٍ وصِغر نفس.

ويؤكد لنا إن مَن يحاول أن يغرس فكرةً ما ضد محبة الله، وضد مجد الإنسان في يسوع المسيح فهو، مُتحالفٌ مع الشيطان.

وفي كل فقرةٍ من رسالته يُبين فعل الصليب وكيف أنه يطرد الوساوس، ويجعل التعلق بالصليب هو غايةً تَفنىَ معها المخاوف، فيكُف الخوف والقلق عن ملاحقة الإنسان.

ثم يختم رسالته بمجموعةٍ من الوصايا عن محبة الله ومحبة الناس، وعن الحياة الجديدة، وسر إتحادنا بالمسيح الذي جعل الخطية عاجزةً عن أن تفصلنا عن المسيح.

لِيبارك الرب كلمات هذا القديس لمنفعة نفوس المؤمنين ولا سيما المُبتدئين – ولِيبارك الرب جهود الذين سَعَوا وإجتهدوا ليوصلوا لنا كلمات هذه الرسالة مترجمةً بلغةٍ رصينة ممتازة يجد فيها القارئ متعةً ومنفعةً روحيةً.

القمص أنطونيوس أمين

مقدمة:

صفرونيوس يسأل بركة صلوات الذين يجاهدون معنا، وقد لَبِسوا صليب ربنا يسوع المسيح كَرداءٍ، وصار الصليب لهم شريعة حياة.

أنواع الخوف:

١- أنواع الخوف - حسب تعليم الشيوخ الذين سلكوا طريق ربنا يسوع المسيح؛ أي طريق الصليب - هي:

الخوف من الخطية؛ وهو خوفٌ يُلازمنا حتى نصل إلى ميناء الخلاص، أي فردوس الفرح.

الخوف من الشيطان؛ وهو خوفُ قلة الإيمان، وهو خوفٌ لا يبقى في الذين ينمو إدراكهم ومحبتهم لله، فوجَدوا في إسم ربنا يسوع المسيح، وعــلامة الصليب، وقوة الروح القدس الذي لَبِسوه في المعمودية، الحصــن المنيع الذي يجعل ثقتهم بالرب لا تموت، وإن هجم عليهم العدو الماكر، وَجَدوا في الرب الحصن المنيع الذي لا ينثلم.

الخوف من كسر الوصية؛ وهو خوفُ المحبة، وهو خوفٌ من الابتعاد عن يسوع رجاء حياتنا ومصدرها الحقيقي الذي لا يمكن أن نتركه، وخوفٌ مثل هذا يجب أن يَبقىَ فينا مهما كانت درجة نقاوتنا.

الخوف من الناس؛ وهو خوفٌ تزرعه فينا المعاملات اليومية، والحرص على القوت والمكسب والاشتغــال بأنواع المعاملات، وهو خوفٌ له عدة مصادر في حياة كل إنسان.

هذا الخوف يُولَدْ من عدم النقاوة الذي فينا، لأن الكذب والخداع والتحايل يخلق فينا خوفاً من أن ننال على أيدي الآخرين ذات المعاملة التي رتبناها لهم، وليس عبثاً أن قال الرب "**بالكيل الذي تُكِيلون به يُكال لكم ويزاد**" (مرقس ٤ : ٢٤، متى ٧ : ٢، لو ٦ : ٣٨) وما يزيد هو ما يُضاف عليه من خوفٍ وقلقٍ نزرعه نحن في أنفسنا.

وهناك مصدرٌ آخرٌ للخوف من الناس، هو الفوضى وعدم الأمان والقلق من انتشــار

الجرائم والقتل والاعتداء على الممتلكات. هذا الخوف مرتبـــطٌ بالظروف وبالأحوال التي يحيـــاها كل إنسان، وهو يُلازم الذين لم يدخلـــوا ميدان المعركة مع الأهواء والشهوات؛ لأن الرسول قال "**الذين هم للمسيح قـــد صلبوا الأهواء مـــع الشهوات**" (غلاطية ٥ : ٤) أما الذين هم للعالم فإن الأهواء والشهوات، تجعل الحرص على الحياة والممتلكات هو ذات ينبوع هذا الخوف.

نحن نخاف بقدر ما نحب [١] **وبما نحب**، لأن الخوف يسير دائماً مـــع المحبة، ولا يمكن أن ينفصل عنهـــا، فقد وُهِبَ لنا الخوف لكي نحيا في العالم في يقظةٍ تامة، ولكي يقاوم الخوف؛ الكسل والتراخي الذي زرعتـــه الخطية فينا. هذا الخوف مثل خوف المبتدئين في حياة الوحدة من الحشرات والثعابين وغيرها التي تحيا معنا في القفر والتي لا نملك القدرة على إخضاعهـــا لنا، بل ننال بمعونة الروح القدس السيطرة عليها، وأحياناً يضع الرب الرعب في هذه الحشرات فتبتعد عن طريقنا وتتركنا وشأننا.

هل يجب أن نقاوم الخوف؟

٢- لا يجب علينا أن نحارب الخوف من الخطية، أو أن نحاول أن نقضي على هذه القدرة التي تحفظ الحياة، أي الخوف، بل علينا أن نسود عليها لا أن تسود هي علينا. ومفتاح كل الأمور في حياتنا هو المعرفة. فالإنسان الذي يدرك ويفهم تيارات الخوف المتصارعة أو الممتدة في داخل قلبه، ويعزل هـــذه التيارات بفحص القلب، يستطيع أن يحدد ينابيع الخوف ويُحوِّل طاقة الخوف إلى الأشياء النافعة؛ مثل الخوف من كسر الوصية، أو الخوف من الابتعاد عن الله، فقد قال الحكيم "**بدء الحكمة مخافة الله**"، وهو هنا يتحدث عن الخوف من كسر الوصية والابتعاد عن الله، لأن الخوف من الله كخالقٍ يزرع في قلب الإنسان الرغبة الكبيرة في ترك كل الشرور لكي يلازم خالقه ويُحبه وبذلك يقتني الحكمة.

٣- إذا استطعنا أن نحوِّل الخوف من الناس إلى خوفٍ من الله نكـــون قـــد كسرنـــا

---

(١) راجع فقرة ٣٠.

قــوة الداء الخفي [١] هذا التحوّل يحدث في القلب الذي يُحب الصلاة والشركة ويجــد فرحه الحقيقي في المسيح، وهذا الفرح هو الدواء؛ لأن الفرح يكسر شوكة الخوف، كما أن الرجاء في الحياة الأبدية يجعلنا نتوقع حيـــاة عدم الموت، مثل شهداء المسيح الظافرين بأكاليل الغلبة والانتصار، هذا الفرح يطرد من داخلنا الخوف من الناس.

٤- لا يجب أن نتجاهل أو نتكاسل عن مقاومة هذه الخميرة الصغيرة، أي خــميرة الخوف، حتى لا تخلق في قلوبنا الاتكال الفاسد على الحكمـــة البشرية، أو أن نظن أن خلاص أجسادنا هو بمعونة البشر، أو بما نحصل عليه من قوتٍ ومالٍ وسكنٍ وملابسٍ، فإن خلاص أجسادنـــا هو من الذي قام من الموت، وداس الموت على الصليب، وهدم قوة القبر، ربنا يسوع المسيح. ونحن الذين نِلنَا عربون قيامة أجسادنا في المعمودية المقدسة التي فيها قد دُفِنَّا مع المسيح – أي دخلنا القبر بإرادتنا – ومعـــه ماتت كل الأهواء إذ صـــارت معلقةً على الصليب مع ذاك الذي هو حياتنا وخلاصنا، فبعد كل هذا لا يجب أن نترك الإرادة والقلب تحت سلطان الخوف، بل نجعلها مصلوبةً معه.

٥- خميرة الخوف خطرٌ على الحياة، لأن الخوف من الموت – ذلك الداء القديم الخفي – يُحرك كل المخاوف الأخرى التي أخذناها من الناس، أو من سيرة السابقين، أو من الوالدين، أو الأقارب، أو الأصدقـــاء، بل إن – حتى – الأعداء يُعلموننا الخوفَ بالتهديد، وبالمثابرة على مطاردتنا وملاحقتنا لكي نُصبح أسرىً لهم، ونفقد ثقتنا الغـــالية والكريمة في المسيح الذي صَلَبَ خوف الإنسان الأول [٢] وأعطـــاه وهو في الجحيم معرفة الانتصار بالصليب، وبَشَّرَهُ مع حواء بالخلاص من العبودية للشيطان.

ولأن الرب نزل إلى الجحيم بواسطة الصليب، فقد قهر العدو الأول أي الشيطان، وكما يقول الرسول "**سبى سبياً**" (أفسس ٤ : ٨) لما أبطل عز الموت بموته وأطلق سراح

---

(١) الداء الخفي في رسائل القديس صفرونيوس هو الخوف من الموت.

(٢) آدم الأول.

المقيدين وأزال كل عوائق الموت والدينونة بموته علـــى الصليـــب. لقد دِينَ الإبن الوحيد لكي يترع الدينونة، ومـــات لكي لا نُستعبَد للموت، وصُلِبَ لكي يَصْلُب الحكم، كما مزق صك خطايانـــا ومحـــا الديون التي كانت علينا؛ إذ رد لنا "**صورة الله**" جديدةً لامعةً ومشرقةً ببهاء الروح القدس، فكيف نخاف ولنا هذا الرجاء؟!!

٦- لِنخلعَ إذن الخوف بالرجاء، وليكن هذا الرجاء في قلوبنا ثمرة المحبة الإلهية التي قال عنهـــا رسول المسيـــح الذي نال إكليل الشهادة "**مـــن يستطيع أن يفصلنـــا عـــن محبة المسيح؟**" إذ وَضَعَ ضرورات الحياة مثـــل الضيق والشدة والموت، بل الحيـــاة نفسها، ثم وضع بعد ذلك القوات الروحية في السمـــاء وعلى الأرض وختم قـــائمة كل العاجزين عن أن يفصلوننا عـــن محبة الله بقوله "**ولا علو ولا عمق ولا كل ما في الخليقة تقدر أن تفصلنـــا عن محبة الله التي وُهِبَتْ لنا في المسيح يسوع ربنا**" (راجع رو ٨ : ٣١-٣٩). وقبل هذه القـــائمة "**إذا كان الله معنا فمن الذي يمكنه أن يقـــف ضدنـــا**" .. لِنصلي لكي يسكُب الله الآب هذه المحبة في قلوبنا، لأن الشهـــداء الظافريـــن نالوا عطية المحبة الإلهية وأحبـــوا الله بقوة الـــروح القـــدس (رو ٥ : ٥) ولما اشتعلت هذه الجمرة الإلهيـــة في قلوبهم قالوا بفم بولس الرسول "**لي اشتهاءٌ أن أنطلق وأكون مـــع المسيـــح، وهذا أفضل**" (فيلبي ١ : ٢٣) لِتكن لنا هذه العطية بالصلاة الدائمة لأن الشهيد أغناطيوس رفض أن تُقَدِم الكنيسة رشوةً للجند لكي يُطلقوا سراحه حتى مات في روما شهيداً، نعم مات عن العالـــم لكي يحيا مع المسيح ورفض أن يحيا بخوف الإنســـان الأول الذي بسبب الخوف طلب الألوهـــة من شجرة المعرفة، ولما تعذر عليه أن يحصل عليهـــا، سقط في هاوية الموت، لأن الشركة في الطبيعة الإلهية لا تُختَطَف، بل تُوهَب في المسيح (٢ بطرس ١:٣).

هجمات الخوف المتلاحقة:

٧- إذا هجم علينا الخوف مثل موجات البحر المتلاحقة فلنجلس حيث نكون، ونرفع قلوبنا إلى الله صارخين لكي يطرد المُقاوِم الشرير، لأن الرسول قال عن موت ربنا على الصليب، أنه أخذ الناسوت لكي يُبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي الشيطان ويعتق

المأسورين كل أيام حياتهم بعبودية الخوف من الموت (عب ٢ : ١٤-١٥).

٨- إذا ذَهَبَتْ هذه الموجات بمجرد الصلاة، لِيكن لنا فرحٌ بالمسيح، لأن هجمات الشيطان تردعها الصلاة، ولكن إذا عادت هذه الهجمات وتكررت وصارت ثابتة، علينا إذن أن نفحص قلوبنا لكي نرى ما هي الشهوة أو الرغبة الداخلية التي تجعل لهذه الهجمات قوة غير عادية تحاول بها أن تأسر إرادتنا. ولِنطلُبَ بعزمٍ أن نَصلُبَ هذه الشهوة وهذه الرغبة لكي لا يكون في داخلنا خيانةَ قلبٍ تجعل الرغبة مثل جاسوسٍ أو خائنٍ يفتح حصن القلب المنيع للشيطان.

٩- لا يقوَ الشيطانُ على حياتنا، فهو يجهل أفكارنا ومشاعرنا حسب تعليم الشيوخ الذي سلَّمه إلينا معلمنا القديس أنطونيوس الكبير [(١)] فالشيطان يُراقِب من الخارج، ومِن تصرفاتنا يعرف - ليس عن يقين - ما يحدث في داخلنا، بل يتوقع من طول خبرته مع البشر، أن يعرف مِن حركات الجسد، ومن الكلمات ما يحدث في داخل القلب، وهو لا يقوَ على أن يدخل قلب إنسان ألاَّ إذا كان في القلب خيانة وارتداد عن الإيمان، وتسليم الإرادة المطلق، وسماح رحمة الله بأن تحدث هذه الكارثة الحقيقية لإنسان.

١٠- فالشيطان لا يملك أن يسود على إنسان، إلاَّ إذا سمح الله له بذلك، وهو لا يقوَ ولا يتسلط علينا إلاَّ إذا أردنا نحن ذلك مغلوبين من شهواتنا ونجاسة دوافعنا. لِنقل مع رسول المسيح "**نحن لا نجهل أفكاره**" (٢ كو ٢ : ١١) ولنقل مع الطوباوي أنطونيوس العظيم "**هؤلاء بمركبات وهؤلاء بالخيول أمّا نحن فبإسم الرب إلهنا نتعظم**" (مزمور ١٩ : ٧) ومع موسى النبي "**قُم أيها الرب الإله ولِيتفرق جميع أعدائك ولِيهرب مِن أمام وجهك كل**

---

(١) راجع سيرة القديس أنطونيوس الكبير حيث حفظ لنا القديس أثناسيوس أطول نص عن ضعف الشيطان في التسليم الآبائي لا سيما فقرة ٢٢-٤٣.

ويقول معلمنا القديس أنطونيوس "**المسيح أتى حقاً، وجعلك ضعيفاً، وبإنتصاره عليك عراك. حالما سمع اسم المخلص لم يحتمل النار التي في اسم المسيح وتلاشى إذ صار غير مرئي**" (فقرة ٤١).

مُبغضي إسمك القدوس"[(١)].

١١- لِنحرصَ على هدوءِ القلب وثبات الإرادة بوسيلة واحدة وحيدة وهي محبتنا لله حسب قول الرسول "**أمّا غـــاية الوصية فهي المحبة**" (١ تي ١ : ٥) لِنسعى لهذه الغاية بقوةِ مَنْ مات عنـــا وبعلامة الصليب لكي تنمو فينا هبة الإيمـــان، وتُصبح مثل شجرةٍ عظيمةٍ لا تقوى عليها رياح الشكوك وكذب الأرواح الشريرة.

١٢- يقول أبونا العظيم أنطونيوس إن هجوم الأرواح الشريرة يرافقه ويسبقه أحيـــاناً الرعب واضطراب النّفْس وتشويش الفكر والحزن والخوف من الموت [(٢)] ولذلك علينا أن نطلب المدافع عنّا والمحامي عن حياتنا، الراعي الصالح ربنا يسوع المسيح الذي أرسل الروح القدس المعزي لكي يحمي حياتنا ويغرس فينا السلام.

لا يمكنُ أن نقتلعَ الخوفَ مِن الناس من قلوبنا مرةً واحدةً:

١٣- إن ما غرسته الأيام والناس فينا طوال أيام غربتنا، هو مثل شبكة الصيادين، لا يمكن القضاء عليها مرةً واحدةً، بل يقطع الروح القدس هذه الشبكة في موضعٍ معينٍ لكي نتحرر ونقوم بواسطة الاتحاد بالروح القدس بالقضاء على باقي الشبكـــة، لذلـــك علينا أن نُلاحظ إن ما نقضي عليه بقوة الإرادة قد يظل في الذاكرة، وهذا لا يجب أن يُضعِف رجاءنا، وما نطرده من الذاكرة قد يكون له أصلٌ في رغباتٍ اعتبرناها غاليةً وهامةً. وما نطارده من رغبات القلب قد يكون بمثابة أحد المبادئ الهامـــة التي نحرصُ عليها، ولذلك لا يجب أن نفشل أو نحزن إذا وجدنا بعض حِبـــال الشبكة غيرَ مقطوعٍ، بل نثابر على أن نحيا صليب ربنا يسوع المسيح، وهو الذي سوف يكشف لنا عن كل الضعفات الداخلية التي تجمَّعت وصارت شبكةً واحدةً متصلة الحلقات.

---

(١) تُقال هذه العبارة دائماً في أوشية الاجتماعات حسب طقس كنيستنا الأرثوذكسية.

(٢) راجع سيرة الأنبا أنطونيوس فقرة ٣٦.

١٤- لقد وَهَبَنَا الربُ هذا العمر وأيام الحياة لكي نتفرغ لنقاوة وطهارة نفوسنا.

اليأسُ خطيةٌ تعادل كل الخطايا:

١٥- يقول الرسول "**لا يجب أن نيأس لأن خفة الضيق في الزمان الحاضر تنشئ لنا ثِقَلَ مجدٍ أبديٍ**" وهكذا لِيكن لنا حذرٌ مِن أسهل وأفظع أسلحة الشيطان - وهو اليأس - لأنه يُحاربنا قائلاً لنا إن الله قد تركنا وإن المسيحَ غاضبٌ علينا لكي نقع في لُجةِ وبحر اليأس ونَهلك مثل يهوذا ... هذا تحذيرٌ أكتُبه بدموعٍ، لأنني رأيت الذين ساروا بعزمٍ في أول الطريق، ثم فقدوا الرجاء بسبب عنف ضربات سلاح اليأس التي ضربهم بها الشيطان، لأن اليأسَ خطيةٌ تعادل كل الخطايا، أي أنها تجعل كل الخطايا مثل خطية اليأس، لأن اليأس يقود إلى الموت.

الخوفُ من كسر الوصية:

١٦- على الذين يسلكون طريق الحياةِ أن يدركوا إن محبة الله لا تُقاس، ولا يمكن مقارنتها لا بمحبة الآباء والأمهات، ولا بمحبة الآباء الروحانيين .. محبةُ الله أعظم، لذلك لا يجب أن نجعل كسر الوصية أو الخوف من كسر الوصية حائلاً بيننا وبين الله، بل لِيكن لنا ثقةٌ في روح المحبة - أي الروح القدس - لكي ننال منه المعونة حتى وإن كُنا في بئر الخطايا؛ لأن الخروف الضال خَلُصَ بواسطة محبة الراعي الصالح. لم يخلص لأن الخروف طلب الراعي، بل لأن الراعي هو الذي طلب الخروف.

١٧- لا يقتني أحدٌ في قلبه رُعبٌ مِن الله، لأن تجسُد ربنا يسوع المسيح جعل رأس الإنسانية الجديد - أي يسوع المسيح - نفسه في الآب وفي الروح القدس، وبذلك أباد رعب القديسين وخوف الأبرار مِن الله، فهو الوسيط الواحد والوحيد الذي حمل معه إلى قدس الأقداس، الطبيعة البشرية وأجلسها على كرسي وعرش اللاهوت إلى الأبد عن يمين الآب، حيث يتراءى ويشفع فينا "**مُؤكِداً لنا أنه لا دينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع**" (رو ٨ : ١).

أكتُب هذه الكلمات وأمام عينيَّ عددٌ كبيرٌ مِن الذين نعرفهم، شاخ فيهم الخوف مِن الدينونة وفقدوا ثقة المحبة وتعطل نموهم في نعمة الله، أي لم يعيشوا حسب فرح النعمة، بل كانوا تحت عبودية الخوف من الدينونة، ولم يُدركوا عمق وعلو محبة الله لنا في يسوع المسيح.

لذلك أنحني أمام الآب سائلاً لكم روح الثقة والشجاعة، ليس في قدرتنا على أن نكون أبراراً في عيني الله، بل في أن نكون أنقياء في المسيح، أي في النقاوة التي منهُ هو والقداسة التي تُعطَى لنا وهي ليست مِن صنعنا ولا بقوتنا، والتي نجاهد لكي نبقىَ فيها ونُدركها على قدر قوتنا دون أن نفقد شيئاً منها، لأنها عطية الله في يسوع المسيح وهي عطيةٌ قال عنها الرسول أنها "**بلا ندامة**" (رو ١١ : ٩) لأن الله لا يتراجع ولا يسحب محبته، بل هو مُحب البشر قبل خلق العالم وبعد خلق العالم والى نهاية الدهور. وهو يُحب الخطاةَ بشكلٍ خــاص، والدليل هو مجيء ربنا يسوع المسيح لكي يُخلص جنسنا العاصي.

١٨- أتوسل إلى المسيح أن يكشفَ لكم عن محبتهِ الفائقة، حتى نُدرك جميعاً إن "**مُحب البشر**" هو راعي الخراف الضالة، وحتى لا يتسبب الخوف - من كسر الوصية - في خلق الوسوسة، لأن هذا مرضٌ ضارٌ يصيب جِذر الحيــاة نفسه ويعطل كل عملٍ وكل فكرٍ إذ يجعل كلاً منا على شكٍ فيما يقول أو يعمل، ويحركه الخوف من العقــاب إلى طلب الغفران بينما هو لا يعرف في ماذا وكيف أخطأ.

الخوف من الأفكار الشاردة:

١٩- لا يجب أن نخاف من الأفكار مهما كانت، لأن الخوف من أي فكرةٍ لا يقضي عليهــا، بل أحياناً يجعلها أقوى مما تبدو. ومَن يخاف مِن فكره يخاف من قوةِ أهــم عطية تَميَّز بها الإنسان عن الحيوان، ألا وهي عطية العقل. علينــا أن نكون على حذرٍ من الأفكار التي تحاول أن تبعدنا عن الله، أما الأفكار التي لا تُبعدنــا عن الله فهي ليست خطراً ولا يجب أن تصبح مصدر رعبٍ لنا.

٢٠- نستطيع أن نميز الأفكار التي تُبعدنا عن محبة الله في ربنا يسوع المسيح على هذا

النحو:

أولاً: هل هي أفكارٌ ضد وصايا الله؟

ثانياً: هل هي أفكارٌ تدعونا إلى تصرفات وسلوك يُقَوِّي فينا الكبرياء والبغضة ويخلق العداوة، أو هي تزرع الانقسام بين الإخوة؟

ثالثاً: هل هي أفكارٌ ضد التعليم الرسولي الذي سُلِم لنـــا في قانون الإيمان وصلوات الكنيسة الجامعة المقدسة؟

لِنفحص ذواتنا جيداً لكي ما نرى نوع الأفكار وما هو التصرف الذي تدعونا إليه، وعندما نُميِّز جوهرها ونوعها وندركه، نترك هذه الأفكار إذا كانت من تلك الأفكار التي تُبعدنا عن الله.

قِيل عن القديس الأنبا مقار أنه ظل يُقاتل فكره الذي يدعوه إلى الخروج من البرية، عدة سنوات، ولّما تَعِبَ، ألقـــى نفســـه على أرض القلاية وقال للفكرة إذا ما كانت لديها القدرة على أن تحمله بعيداً، فلتحمله. ويقول كتاب تعليم الشيوخ [1] انه استراح، فقد عاد إلى كيانه الواحد غير المنقسم أي وَحَّدَ جســـده ونفسه وعقله وإرادته عندما إستلقى على الأرض، وبالإحساس بجسده تَخلَّت عنه الأفكار التي تقاومــــه، فقد عاد عقله إلى جسده، وحل إدراكه في كيانه المحدود، فهدأ العقل عندمـــا أدرك الأنبا مقار إن كيانه غير منقسم.

٢١- وتحاربنا الأفكار بشراسةٍ عندما يكون القلبُ منقسماً، وعندما تكون الإرادة عاجزةً عن أن تُوَحِّدَ الفكر والعواطف، لأن انقســـام القلب يُوزِع قوى الإنسان الداخلية في اتجاهات متعـــارضة، إن لم يكن في اتجاهين فقط. وإذا تخلى الإنسان عن اتجاه أو أكثر مِن الاتجاهات المتعارضة، هدأ العقل، وعاد العقل وسكن في القلب، أي أدرك العقل عظمة المحبة وتخلى عن الأفكار الباطلة التي عاشت فيه، وعاد إلى هيكل الله أي القلب حيث يسكن الروح

---

(١) الاسم القديم لكتاب بستان الرهبان واسم البستان ورد إلينا من الترجمات السريانية.

القدس.

إن أحد ثمار الخطية هو انفصال العقل عن القلب، وصراع الفكر مـــع العواطف، وصراع العواطف مع الإرادة، وانفصال المخيلة عن الذكاء، وانفصال الذكاء عن الإرادة، ولذلك ترى العديد من البشر أذكيـــاء جداً في التجارة والصناعة بينما هم ضعفاء جداً في فهم الأسفـــار المقدســـة أو في محبة الآخرين. وترى البعض أقوياء جداً ولهم إرادة قوية، إلا أهم ضعفاء أمام الخمر، أو في حضور النساء، لأن صلابة الإرادة تُحركهـــا الأهـــواء، ولا تحركها الفضائل، ولذلك تجد نقاط ضعف كثيرة ينفذ منها الضعف عن طريق اللذات والشهوات التي تسمح بها الإرادة.

٢٢- لقد كان الموت الروحي بمثابة فسادٍ وتحللٍ داخلي أصاب الطبيعـــة الإنسانيـــة، الأمر الـــذي جعل الخوف يسكن في أخطر وأدق ما في قلب الإنسان ألا وهـــو الرغبة في البقاء والحياة، وهو ما يجعـــل الإنسان يسلك سلوكاً أنانيـــاً دون أن يحس، ويتعظم دون أن يفهم، ويحكم ويُدين دون أن يُدرك أنـــه جلس على كرسي الدينونة الخاص بالله وحـــده، لأن الخطيـــة جعلـــت الإنســـان يظُن أنـــه الديان العادل، وينسى أن حكم الدينونة هو لله.

الهرطقاتُ سمومٌ قاتلة:

لِنحذر الهرطقات التي تبعدنا عن المسيح ولِنميز هذه السموم، دون أن نتذوقها لأن سُم الهرطقات ظاهرٌ، فهي تريد:

أولاً: أن تفصل الإنسان عن الله وعن الاتحاد والشركة في الثالوث القدوس عندما ننكر ألوهية ربنا يسوع المسيح، مثل سُم الأريوسية القاتل.

ثانياً: أن تهدم صخرة النعمة، وتغلق ينبوع الحياة عندما تنكر اتحاد اللاهوت بالناسوت، لأن إنكار الاتحاد كما في سُم النسطورية، هو إنكـــارٌ لتجلي ناسوت ربنا بكل خيرات ومجد اللاهوت، وهو إنكارٌ للنعمة التي توهب في الأسرار السمائية المقدسة، لأننا لا نموت ونُدفن

مع إنسان في المعمودية المقدسة، بل نموت ونُصلب ونُدفن ونقوم مع الإله المتُجسد الذي أبطل بقوته الفساد والموت وهدم سلطان الهاوية. وجاءت إلينا نحن الترابيين خيرات ومجد اللاهوت لأن ابـــن الله الحي أشرق جسديـــاً من البتول القديسة مريم وسطع نور الحياة غير المغلوبة، أي حياة اللاهوت في ناسوته الإلهي، فصار لنـــا بالاتحـــاد معه وبه وفيه ذات المجد الإلهي الذي نالـــه الناسوت بالاتحاد مع اللاهوت، لأن الناسوت لم يَغلِب الفســـاد والموت بقوةٍ إنســـانية، بل القوة الوحيدة التي تغلب الفساد والموت ولا تخضع لهما هي قوةُ مَن هو حيٌّ بالطبيعة وجابـــل الإنسان وبارئه ربنا يسوع المسيح كلمة الله الآب الذي خلـــق وكوَّن كل الأشيـــاء وحامل كل ما هو كائن بكلمة قدرته (عب ١ : ٣).

٢٣- وكل من يحاول أن يغرس أي فكرة ما ضد محبة الله وضد مجد الإنسان في يسوع المسيح، فهو متحالف مع الشيطان الذي يجسد الشر الذي فيه، خدع الإنسان وقاده إلى الموت لكي لا ينال الإنسان شيئاً من الله بل يسقط ويهلك. هكذا راعي السوء ومعلم الزور، وكل من ينكر مجد الإنسان في المسيح هو متحالف مع الشيطان وشريك له في الحسد الذي حاول أن يُبطل به مجد محبة الآب.

٢٤- نستطيع أن نميز الهرطقة على النحو التالي:-

* الهرطقة التي تنكر تجسد ربنا يسوع المسيح.

* الهرطقة التي تُنكر ألوهيته.

* الهرطقة التي تُنكر اتحاد اللاهوت بالناسوت.

هذه هي طرق الموت الثلاثة التي كل من سار فيها يهلك إلى الأبد.

لِنميز التعليم الشيطاني على هذا النحو:-

* التعليم الذي يُنكر مجد الإنسان في المسيح بإنكاره لتجسد ابن الله.

* التعليم الذي يُنكر شركة الإنسان في حيـــاة ربنا يسوع المسيح، عندمـــا يَبعَثْ هذا التعليم من جديد أحكام توراة موسى محاولاً أن يجعـــل الشريعة الموسوية هي الوسيط، وبذلك يهدم

ركن الخلاص الثابت أي موت ربنا يسوع المسيح الذي به تحررنا من كل رباطات الناموس.

٢٥- التعليم الذي يجعل نعمة الله غريبة عن الله نفسه، ويُنكر أن كل شيء هو من الآب بالإبـــن في الروح القدس [1] وبذلك يجعل النعمة الإلهية غير هبة الحياة في يسوع المسيح.

لِنحذر هذه السموم لأنها قاتلة، ولأنها تعيد إلى الإنسان طبيعته العارية التي لا مجد لها، ولا حياة فيها بدون ربنا يسوع المسيح.

الخوفُ الذي ينبع مِن صِغَرِ النفس:

يُوَلِّدُ الخوف صِغَر النفس، كما يُولِّد صِغَر النفس الخوف، وما أعظم الفرق بين الإنسان المتواضع الذي يعرف طبيعته الإنســـانية، ويحتقر ذاته مؤمناً بأن أي شيء صالح فيه هو من الله، وبين الإنسان الذي يمجد ذاته مؤمناً بأنه هو مصدر الصلاح الذي فيه.

يسقط الأول ويقوم، لأن تواضعه يجعله يقف عند باب المراحم الإلهية يتوسل إلى محبة الله. ويسقط الثاني ولا يقوم لأن الكبريـــاء التي فيه تقوده إلى اليأس وصِغَر النفس.

كلما زاد كبرياء الإنسان، كلما زاد سقوطـــه في صِغَر النفس، وكلما عـــاد الإنسان إلى حقيقة ذاته وميَّز في قلبهِ نعمة الله التي قال عنهـــا الرســـول "**حيـــث كَثُرَ الإثم ازدادت النعمة جداً**" (رو ٥ : ٢٠) ووجَد دالته عند الآب السماوي في يسوع المسيح، كلما إبتعد عنه صِغَر النفس.

٢٦- لا يجب أن يحتقر الإنسان ذاته، ويقف عند احتقار ذاته، بل يجب أن يتقدم إلى نعمة التبني، ويُدرك من خلال حقارته مجد وعظمة النعمة التي نالها. أما إذا توقف عند الحقارةِ وحدها سقط في بئر اليأس ولاَزَمَهُ صِغَر النفس إلى يوم الممات.

---

(١) هذه هي أهم العبارات عن النعمة التي نجدها عند كل الآباء، راجع على سبيل المثال "**رسائل القديس اثناسيوس إلى سرابيون عن الروح القدس**" ترجمة مركز دراسات الآباء بالقاهرة.

الفكر المنقسم والوسواس:

٢٧- نحن لا نخلُص مِن الخطية باللوم ومعرفة أسبابها والبحث في شكلها وجوهرها ... بل نخلُص بالإيمان وبالمحبة، وكلاهما عطية الله لنا في يسوع المسيح.

٢٨- نحن لا ننال النقاوة لأننا فحصنا أعمالنا، بل لأننا نتشبه بالمسيح ونحبه ونتبعه، الذي هو وحده ينبوع النقاوة، لذلك لا يجب أن نضع ثقتنا في أفكارنا أو في قدرتنا، بل في الذي هو الحياة الكاملة الحقيقية.

٢٩- الفكر المشَوَّش هو فكر المتكبرين، وثمرة الكبرياء السامة القاتلة هي التي لا نجد فيها راحة، بل الموت الأبدي. المتكبرُ جبانٌ بلا شفقة، قاسٍ لا يعرف الرحمة ودائم الدفاع عن نفسه، لا يقبل اللوم أو النقد، بل يثور مُقَدِماً أفظع الأكاذيب عن نفسه وعن غيره، وبذلك يفقد الطريق إلى قلبه.

ومن الكبرياءِ يُولد النفاق. والمنافق مثل الحرباءِ يُغَيّر لون جلده في كل يوم وفي كل مناسبة، وهو أيضاً يفقد الطريق إلى قلبه ويقوىَ فيه جهله بحقيقة حياته ويتوه مع دوّامات الحياة ويتحول إلى تائهٍ بلا هدف، لأنه وضع إرضاء ذاته وإرضاء الناس قبل الله.

٣٠- نحن نخاف بقدر ما نحب، ولذلك فإن الخوف الذي يُلازم المحبة يكشف لنا عن اضطراب وتشويش محبتنا. مَنْ يُحب آخر مثل الأب والأم محبة أنانية، يخاف موت مَنْ يُحب، ويُفضل له العذاب وطول الرقاد (في المرض) عن الموت، لأنه يُحب أن يراه وينال فرحاً ظاهرياً وأنانياً معاً، ولذلك فهو لا يفكر في الآخر، بل في نفسه وفي احتياجاته الخاصة، أما إذا طَرَحَتْ المحبة الخوف، فإن المحبة الكاملة هي المحبة المصلوبة مع المسيح والتي بالصليب تُوِّجَتْ بإكليل الحياة التي لا تفنى.

٣١- هكذا تغرس الرذائل انقسام الفكر، وتجعل الأهداف التي نسعى إليها متعددة، وتتوه أمامنا معالم طريق الحياة، ونغرق في دوّامات النفاق والكبرياء. أما الفكر الذي تَعلَّمَ في مدرسة الصليب كيف يطرد ما هو غير ضروري وكيف يصلُب ما هو شرير،

وكيـــف يبيـــد الشهوة التي تجلب انقسام الفكر، هذا الفكر يستقيم ولا يتـــوه، بـــل يجد في الجلجثـــة (الكلمة الأصلية الإقرانيون أي موضع جمجمة آدم) مكاناً لرأســـه ويستريح هناك لكي يتعلم كيف يُفَكِّرُ جيداً في الأمور النافعة.

٣٢- وهكذا يُعالج الصليب الوسواس، لأنه يزيل من الفكر والقلب، التعلق المريض بالحياة، ويجعل التعلق بالصليب هو غايةٌ تفنى معهـــا المخاوف فيكُف القلق والخوف عن ملاحقة الإنسان. ومَن يخاف مِن الأمراض ويُكثِرُ مِن نظافة يديه، إذا لَبِسَ عقله الصليب أعتبر حياته ذبيحة وغابت سُحب الخوف الداكنة من حياته وغلب الخوف بذكـــر الموت، وليس عبثاً أن نُسلِّم أرواحنا لله الآب ضابط الكل قبل أن ننام لأننا نعتبر الفراش والأغطية هي القبر لكي نُبيد التعلق الكاذب بالحياة ونسعى وراء الحياة الحقيقية أي ربنا يسوع المسيح ونطلبه بكل اشتياق.

٣٣- لِنعالج أفكارنا بالفكر النافع، ولِنطلب ما هو باقٍ وعديم الموت، أي ما وُهِبَ لنا في يسوع المسيح ربنا لأن طلب الأمور الزائلة هو الذي جعلَ انقسام حياتنـــا أمراً لا يمكن الهرب منه، لأن الرذائل تخلق الانقسام في الفرد الواحد، وفي الجمـــاعة الواحدة، أما الفضائل فهي تُوَحِّد الفرد وتُوَحِّد الجماعة وترفع الانقسام، وحيث تسكن البغضة يسكن الخوف وحيث يسكن الخوف يسكن الاضطراب والتشويش.

٣٤- إذا لازَمَ الخوف من الأمراض أو الخوف من الموت حياة أي واحد منا، فليجلس مثل هذا في القلاية، وليصنع له صليباً كبيراً يضعه أمام عينيه، ولا يخرج حتى يطبع الصليب في فكره وقلبه وإرادته.

إرمى ذاتك على الأرض مثـــل ميـــت، وقُل مع ربنا يسوع المسيح المصلوب "**يا أبتاه في يديك أستودع روحـــي**" ومتى فعلت ذلك لا تترك فكـــرك أسيراً للخـــوف، بل إنطلـــق إلى القـــبر وإدفن نفسك مع المخلص الذي تحبه نفسك وثق أنك بعـــد أيام ستجد نفسك تضحك من مخاوفك.

الأفكار النجسة، أفكارٌ طائشة لا تُخيف:

٣٥- أتريد أن تعرف طريق المحبة؟ تجده مرسوماً في صفحة الحرية، **لأنه لا محبة بلا حرية ولا حرية بلا محبة**، والمحبـــة لا تُقيِّد الحرية، بل تجعلها تُحَلِق في أجواء المحبة فقط لا أن تطير حيث مستنقعات الخوف الكريهة. هكذا يا مَن تُريد أن تسلك طريق الحياة، إعلم أن الأفكار النجسة طائشة وأنها لا يجب أن تخيفك لأنها صادرة من القلب الذي لم يتطهر، أو يرميها العدو الماكر في قلبك لكي تسقط.

٣٦- أتريد أن تعرف ما هو الفرق الجوهري بين فكرٍ نجسٍ، أنت مصدره، وبين فكـــرٍ نجسٍ، مصدره الشيطان؟ راقب قلبك جيداً. إذا كانت الفكرة النجسة طارئة هجمت عليك بغتةً دون مقدمات ودون إنذار لأنـــك مشغول بالهذيذ أو تلاوة المزامير، إبتسم، وقل للعدو أخطأت فـــي إصابة الهـــدف. أما إذا كانت الفكرة النجسة قد تطورت مِن فكـــرةٍ أخرى سبقتها جاءت من الذاكرة بشكل واضح، فإعلم أنك أنت مصدر هذه الفكرة. وهنا إبتسم، وقل في شجاعة الإيمان .. لقد تركت لذَّات الصبا وهجرتُ ذلك الماضي، ولا ترتاع لئلا تسقط في اليـــأس، ولا تفشـــل إذا وردت عليك هذه الفكرة ألف مرة، لأن الفكرة مرتبطة بأفكار أخر، ولذلك حاول أن تمسك بالأم التي تلد ولا تُطارد الغلام الصغير. والأم هنا قد تكون لذة جسدانية أو خبرة سابقة لا زلت تحبها، أو عملاً قُمتَ به في حياتك الماضية لا زلت تفتخر به .. هنا الندمُ دواءٌ والبكاء الحقيقي بوجع، يغلب هذه الشهوة ويقتل الأم، فلا تلد هذا الغلام المشاكس.

٣٧- إذا جمعنا كل الأماني التي نريد تحقيقها والتي فشلنا في الحصول عليها، فلنقل بكل حزمٍ، هذه قد صارت لا شيء لأن الأماني الأكبر هي عطية الحيـــاة في يسوع المسيح ... هذه الأماني الخفية تلد الأولاد المشاكسين وتُطارد القداسة التي وهبها الروح القدس لنا ... لنسرع أيها الأحباء إلى الحياة أي عطية الروح القدس لكي ننجو من الموت الأكيد.

٣٨- إذا استمرت الأفكار النجسة ولم يكن لها قبولٌ في القلب وإذا دامت مناظر سمجة في المخيلة فإن أقصر طريق للتغلب عليها هو الانصراف إلى العمل اليدوي الجسداني

الشاق مع صلوات قصيرة متتابعة والدعاء الدائم وبشوقٍ لإسم ربنا يسوع المسيح حسب ترتيب تسبحة الكنيسة المقدسة [١]. عند ذلك ينصرف هذا الشيطان الماكر، شيطان الزنى، لأن الروح النجس الذي تكلم وقال إن القديس أنطونيوس يرقد فوق جثة امرأة، أراد أن يثير مخيلة المُحارب، فقال أنطونيوس لتذهب إلـى الجحيم. ولما ذَكَرَ الجحيم مَنَعَ فكره ... هكذا لِنذكر الدينونة لأنها تُخيف الشيطـان، ولِنطرح هذه المناظر بتصور المصلوب، لأن صورة الصليب في المخيلـة تُبطل حروب العدو، وتبعث في النفس حرارة محبة تحرق هذه المناظر السمجة.

٣٩- هـذه هي إرادة الشيطان، أن يجعلنا نفقد الرجاء وأن تُسيطـر علينـا أحزان الفشل والخوف والتردد، بل والوسواس إذا أمكن، حتـى إذا ساد الاضطـراب حياتنا وضاعت من أمام عيوننا غاية الحياة، سقطنا في أسهل التجارب وضاعت مِنّا سُبل الحياة.

الرجاء هو الوليد البكر للمحبة:

٤٠- رجاء المحبةِ لا يُخزى، لأنه يَعرِف عمق محبة الله الذي لم يتردد في أن يُرسل إبنه الوحيد لكي يخلصنا. بهذا الرجاء نخلُص مِنْ اليأس ومِنْ صِغَر النفس، ونعرف مقدار كرامتنا العظيمة لدى الله مخلصنا.

٤١- إذا ازدادت محاربـات الأفكـار لنـا فلا نجزع ولا نخجل ولا نيأس، بل لِنستمر فـي الصلاة. ولا يجب أن نتهم الجسد، **لأن الجسد لا يُمكنه أن يتحرك بدون الإرادة،** ولذلك يجب القيام بالسجدات المطلوبة أثناء الصلوات [٢] وأن نسجد بكل وقار ومحبة عارفين أن سجودنا هو إخضـاع الإرادة والفكر وتقديم الجسد قرباناً روحياً حسب كلمات الرسول بولس "**أسألكم أيها الأخوة برأفة الله أن تُقدمـوا أجسادكم ذبيحةً حيةً مقدسةً**" (رو ١٢ :

---

(١) إشارة إلى الإبصاليات حسب ترتيب التسبحة السنوية.

(٢) لم يُحدد الأب صفرونيوس السجدات أثناء الصلوات، ولكن كما هو معروف لنا من طقـس كنيستنـا، السجود بعد العبارات التي تشير إلى السجود مثل مقدمة صلاة باكر "**تعالوا بنا نسجد**".

١) و لم يتوقف الرسول عند هذه الكلمات، بل أضاف ''**مرضيةٌ عند الله عبادتكم العقلية**"، لأن العقل أو الروح لا يحيا بدون الجسد، بل يحيا في الجسد وهو مصدر الحياة الجسدانية، ولذلك السبب كلما سجدنا بالجسد، سجدت مع الجسد الروح والعقل والإرادة.

٤٢- لِنحيا بالرجاء الحي في يسوع المسيح ربنا، ونُلازم السجود وكل مرة تُهاجمنا فيها الأفكار النجسة، فلنُرتل بصوتٍ مسموعٍ إذا كـــان هذا لا يُزعـــج أحداً، لأن الترتيل ينقل الجندي المحارب من الخوف إلى الاستعداد حســـب قول الرسول "**هل لأحدٍ منكم مشقة فليرتل**" لأن الترتيل يُنهض الإرادة، ويجعلنا مثل المحارب الذي يفحص أسلحته ويجدها كافيةً مُؤهِلةً للمعركة الروحية.

تجلي الجسد بالتوبة:

٤٣- لا يجب أن نحيا في المسيح بدون أن تتجدد أذهاننا، لأن عـــدم تجديد الذهن (الإدراك، المعرفة، الإرادة، المشاعر) يعني أننا لن نختبر تجديـــد الجسد الذي لا يمكن أن يتجدد بدون الذهن، ولذلك يقول الرسول أولاً "**لا تُشاكلوا هذا الدهر**" (رو ١٢ : ٢) وهو هنا يؤكد على أن يكون لنا ميزان للفضائل والرذائل، هو ميزان الإنجيل نفسه، لا ميـــزان العالم لكي نُميِّز بين ما هو مقدس ونافع حسب يسوع المسيح، وبعد ذلك يقول الرسول ثانياً "**تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم**" (رو ١٢ : ٢) لأن الشكل أي هيئة الجسد وتصرفات وسلوك كل عضو من أعضاء الجسد لا تتغير إلا إذا كانت الروح في حالـــة التوبة بقوة الروح القدس، وهذه هي علامة توبة الروح بقوة ونعمة الروح القدس: متى رأيت نفسك تهزأ بكل الأفكـــار، وتفرح بالشتائم، وتُسرع إلى خدمـــة الإخوة وتُفضل راحتهم على راحتك، وقبل كل هذا وذاك، إنك تغفر الإســـاءة فأعلم أنك قـــد مُسحت بروح المسيح يســـوع وإنك في شركةٍ معه. هنا يمكن أن نتكلم عن تجديد الجسد، لأن كل عضو يأخذ شكلاً جديداً ويُمسح بالرأفة والرحمة، فلا تَضرِب اليدين، بل تُقَدِم ما هو نافعٌ، وتُسرع القدمين إلى السجود والخدمـــة، وتتحوَّل أنفـــاس الإنسان وحركة صدره إلى توسلٍ

[١] وطلب، وينتعش الجسد نفسه فيتحرك بسهولة، لأن قوة الروح تدفعه بفرحٍ إلى الأعمال الشاقة، ولأنه صار واحداً مع الروح القدس وإمتزج بنعمة الروح القدس فوضع قدميه على أول درجات الحياة في الدهر الآتي، وصار الجسد مثل الروح يحيا في الابتهاج في الله، ولذلك يحس البعض منا بأن الجسد خفيف يكاد يطير، وبوحدة مع كل الخليقة؛ مع الأشجار والمياه والرياح، ويشكــر مع كــل الكائنات ويندمج معها في التسبيح بحرارة ولذة تفوق الكلمات.

زمان العُرس وزمان الانتظار:

٤٤- "**هوذا تأتي أيامٌ يُرفع فيها العريس وعند ذلك يصومون**" (مت ٩ : ١٥) هكذا قال إبن الله نفسه عن زمانٍ لا نعرف فيه عُرس الملكوت، بــل نجد أنفسنا في زمان جفــافٍ وصعوبةٍ ونصبح مثل الأرض الجافــة التي لم تَرَ مطر نعمة الله ..... هذا زمانٌ صعبٌ وليلٌ طويلٌ عاشه الآبــاء القديسون وثبتوا فيه لأنهم لم يطلبوا لذة الشركة قبل الشركة، ولا الفرح بالعطية قبل الله نفسه، أي أنهم فَرِحوا بالله، ولمــا جــاء ليلُ احتجــاب وجــه الله الذي سبق فرآه داود وصرخ فــي توجــع "**لا تحجــب وجهك عني**" (مز ٢٧ : ٩)، ظل هؤلاء الآباء على حال الأمانة لمواعيد الله وثبتوا في أمــاكنهم ولم يفقدوا رتبتهم ولم يبيعوا بركة البكوريــة مثل عيسو الذي وُصِفَ بأنه "**مُستبيحٌ**" وباع الباقي بالفاسد، ولذلك لم يَعُدْ له قدرة على التوبة، ليس لعجز رحمة الله، بل لأنه سار وعاش بهذا القانون وطلب الفاني ولذلك زالت توبته.

٤٥- لِنثبُتَ في الرب، ولا نترك وصاياه، ولِنقبل هذا الامتحان حتى يجيء زمان العُرس الذي تتهلل فيه النفس وتفرح بالله خالق كل الأشياء. وقد استلمنا من الشيوخ أن زمان الانتظار هو زمانٌ صعبٌ نتلــو فيه الصلوات أحياناً دون فَهمٍ ونُصلي بندمٍ، ولكن بلا دموع، ونجلس في الهذيــذ بلا فرحٍ. هذا هو امتحان النفس العسير. أنريد الله نفسه أم نريد

---

(١) راجع عبارة الإبصالية "**كل نَفَسٍ أعطيه يُبارك إسمك القدوس**".

المواهب والعطايا؟ لأن الذين هلكوا قد هلكوا بواسطة المواهب، أما الذين نالوا الخلاص فقد كان لهم الإيمان الثابت والمُستقر في يسوع المسيح ربنـــا ومخلصنا، ولذلك كانت عيونهم علـــى يسوع أكثر مما هي على المواهب الروحية، ولذلك نـــالوا الملكوت السماوي (راجع مت ٧ : ٢١-٢٣) وهؤلاء قال عنهم ربنـــا يسوع المسيح إنهم فعلوا إرادة الآب السمـــاوي إذ صـــاروا مثلـــه (راجع مت ٧ : ٢١ مع مت ٥ : ٤٨).

وصايا هامة خاصة بانتظار النعمة:

٤٦- يقول الرسول بولس إن الله لا ينسى تعب المحبة، وهو لا ينسى إننا في زمان الجفـــاف لم نترك وصاياه، وإننا كنّا نجلس لنسمع كلمات الإنجيل ولا نفهم منها إلا القليل، وكنّا نشترك في القداسات بقلـــبٍ باردٍ غير مشتعلٍ بمحبة الله، ولكن لم نسقط في خطايا الأمم، ولا سلكنا طريق بلعام [١].

لِنترُك كل الأفكار التي تُحرضنا على التهاون ولِنُمارس عبادتنا وصلواتنا وأصوامنا حتى تجيء أمطار التعزية في الوقت الذي يختاره الله لنا.

٤٧- لِنُحِب الله ليس من أجل عطاياه، فهذه هي محبة العبيد، ولكن لِنُحبه لأنه الآب، ولأنه مصدر كل محبة، لِنُحبه كما أحبنا في يسوع المسيح ربنا، وليكن هذا هو غاية حياتنا.

٤٨- ولِنسلك بتدقيقٍ لا لكي نصل إلى البِّر الذاتي، لأن البِّر الذاتي هو مصدر الوسواس، وكل الذين يظنون أنهم يخلصون بأعمالهم سوف يعانون متـــاعب وصعوبات لا يملكون أن يقاوموها ويسقطون في الكبرياء والعجرفة دون أن يعلموا.

٤٩- لِنحيا حسب نعمة المعمودية المقدسة التي فيها قد قَبِلنا عطية التبني واستنارة الروح القدس. لِنسلك في هذه العطية :

أولاً بالصلاة الدائمة.

---

(١) أي طريق من يريد الحصول على أجرة كمقابل لكل عمل يعمله.

ثانياً بملازمة إسم ربنا يسوع المسيح حسبما استلمنا من تسابيح الكنيسة المقدسة.

ثالثاً بخدمة الإخوة، لأن خدمة الإخوة هي صَلبٌ للإرادة وموتٌ عن رغباتنا الخاصة.

رابعاً بقبول الموت مع المسيح وهو الموت الذي تحوَّل من عقوبةٍ وحكمٍ [١] إلى خلاصٍ وقوةٍ لتجديد النفس والجسد، لأن الرب بموته جعل الموت باب القيامة، وضمه إلى المعمودية المقدسة سِرّ ولادتنا، فصِرنا نُولد من جديدٍ بموته المحييّ وصلبه، لأن الرب عندما مات على الصليب جمع الموت والحياة معاً في جسده ونفسه الإنسانية وجعل الغلبة للحياة، وحوَّل الموت من إنفصال النفس عن الجسد إلى إنفصال النفس عن الخطية.

كان عرش الخطية هو الموت حسب قول الرسول القديس "**كما ملكت الخطية في الموت. هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا**" (رو ٥ : ٢١). وهكذا قال الرسول عن نهاية مُلك الخطية وضياع مملكتها بضياع وإبادة مملكة الموت "**إحسبوا أنتم أنفسكم أمواتاً عن الخطية، ولكن أحياءٌ لله بالمسيح يسوع ربنا**" (رو ٦ : ١١). ولما سقط عرش الخطية أي الموت، سقطت قوة الخطية وسيادتها لأن الخطية تدفع الأجرة للخاطئ وهي الموت. (رو ٦ : ٢٣). ولما مات الرب وأبطل حكم الموت وأباد سلطان القبر، أباد عرش الخطية وداسه بعزة لاهوته، وقداسة ناسوته، فصارت الخطية عاجزةً عن أن تُقَدِمنا للقضاء والحكم وبذلك فَقَدت سلطان الدينونة، وصارت عاجزةً عن أن تُقَدِم أي خاطئ للموت بسبب موت المسيح على الصليب، وهنا تحوَّلَت طبيعة الموت، حيث أسَرَهُ المسيح، وجعله ليس قوةَ هدمٍ للموت، بل قوةَ هدم القديم أي الجسد الفاني، وقوة هدمٍ للشهوة لأن الشهوة لا تقود إلى الحياة الباقية. وفَصَلَ المسيحُ بين الموتِ كقوةٍ تعمل فينا للقضاء على حياتنا الأرضية، وبين الخطايا كافة، وعندما ضم الموتَ إلى الصليب – لأنه قَبِلَ الموتَ لكي يجمعه في صليبه المحييّ – حَوَّلَهُ إلى قوةٍ تفكُ رِباطات النفس مِنْ عبودية الخطية. وصار الخاطئُ يَرى خطاياه مصلوبةً أمام عينيه، ولم يَعُد يناضل وحده مِنْ

---

(١) راجع صلاة القداس الغريغوري "**حوَّلت لي العقوبة خلاصاً**".

أجل تحرير وفك رباطـــات الخطية، بل صار يستدعي قوة الذي مـــات وهو بريءٌ وقدوسٌ قداسةً كاملةً، أي يستدعي قـــوة الصليب، قوة الموت المحييّ [١]، لكي تُبيد أشواك الخطية وتترع الشهوة من القلب. وهكذا قال الرســـول "**أي ثمر كان لكم عند ذلك عندما كنتم تعملون الخطايا التي تستحـــون منها الآن، لأن نهاية تلك الخطايا هي الموت، وأما الآن إذ قد أُعتقتم من الخطية وصرتم عبيداً لله صار لكم ثمر حياتكم كعبيد هو القداســـة والخاتمـــة هي الحيـــاة الأبدية**" (رو ٦ : ٢١-٢٢). ولذلك السبب عينه تُدعى صلاة غفران الخطايـــا بإسم "**التحليل**"، لأنها صلاةٌ لِفك رباطات الموت - حسب كلمات الصلوات نفسها "**الذي قَطَّعَ كل رِباطات خطايانا**" - أي القوة التي تُوجِد الخطية والموت.

٥٠- والصلة بين الخطية والموت هي مثل الصلة بين الرأس والجسد. فإذا قُطِعَت الرأس، مات الجسد وفَقَدَ قدرته على الحركة. والخطية هي الرأس الذي يُحرك أعضاء الجسد، أي قوات الموت المتنوعة، كمـــا يحرك الجسد الرأس ويعطي لها قوة الحركة ويمدها بقوة البقاء. جاء الرب يسوع وقطع الرأس، أي فَصَلَ الرأس عن الجسد، وغَرَسَ رأساً جديدةً هي رأسهُ هو المتوج بإكليل الخلاص أي الشوك الذي يحمـــل رمز لعنة الأرض لأن الرب قال "**حسكاً وشوكاً تُنبت لك**" (تك ٣ : ١٨) وماذا وضع الرب عِوَضاً عن الرأس؟، الحياة الآدمية الجديدة التي خُلِقَتْ مِنْ الروح القدس، ومِنْ العذراء القديسة مريم، وجعل هذه الحياة هي ميراث كل المؤمنين، ووهبها لهم جديدةً ظافرةً، عديمةَ الموتِ، باقيةً فيه، مثمرةً للحياة الأبدية.

٥١- هذه الحياة الجديدة المخلوقة حسب الله، أي حسب الخلق الجديد في يسوع المسيح، نراها كاملةً في المسيح، ونراها كاملةً فينا بالنعمة التي تُوهَبْ لنا في الأسرار السمائية، سر الميلاد الثاني أي المعمودية المقدسة، وسر اتحادنا بالمسيح في سر الشكر الإلهي أي جسد ربنا ودمه الكريم الذي يثمر فينا حياة عدم الموت.

---

(١) موت الرب المحييّ هي عبارة هامة وردت في كل تسابيح وصلوات الكنائس الشرقية الأرثوذكسية.

٥٢- فإذا كانت الخطية تعمل في أعضاء الجسد حسب قول الرسول "**بسبب ضعف جسدكم**" (رو ٦ : ١٩) فإننا نُقَدِمُ الجسد ذبيحة محبة، ونتحوَّل إلى ذبيحة محبة بالتشبه بمن مَدَّ يديه على الصليب وأعطى السلام والمصالحة وغفران الخطايـــا، لأن السلام يُحوِّل الجسد نفسه إلى صورةٍ للمسيح، والمغفرة إلى صورة المصلوب، والمصالحة إلى صـــورة عطية الروح القدس الذي يسكن في الخطاة رغم قداسته ويشتاق إلى خلاصهم.

٥٣- حقاً حوَّلَ الربُ؛ الموتَ مِنْ عدوٍ للحياة الجسدانية إلى قوة خلاص وحياة للحيـــاة الجديدة التي فيها يَهدمُ الموت، الفاسد، ليس بقوته الذاتية بل بقوة الذي صُلِبَ ومـــات، وهو ما يقول عنه الرسول بولس "**أبتُلِعَ الموتُ إلى غلبـــة**" (١ كو ١٥ : ٥٤). لأن الموت الذي قَبِلَهُ الرب كان موتاً محييـــاً، إذ صار قوةَ خلاصٍ لكل الذين يؤمنون بالمسيح. كان الموت قبل الصليب قوةَ هـــدمٍ تؤدي إلى القبر. أما بعد المسيح فصار قوةَ خلاصٍ، لأنه لا يهدم للفناء بل يهدم للقيـــامة، ولا يعمل لقتل الحياة، بل يعمل لقتل الخطية لأن "**إنساننا القديم قد صُلِبَ مع المسيح لكي يُبطل جسد الخطية**" (رو ٦ : ٦) أي لكي يُحرر الجسد من سلطان الخطية إلى سلطان ابن الله المصلوب عنا.

وفيه - أي في المسيح - نجد في الكفِ عن الخطية، الحياة الجديدة التي تُوهَب لنـــا والتي لا تُخلَق بإرادة الجسد واللحم والدم، بل بقوة الميلاد الثاني من الله (راجع يوحنا ١ : ١٢-١٣).

٥٤- لِنتقدم بشكرٍ إلى الآب السماوي ونرشم ذواتنا بعلامة الصليب المحييّ، لكي ننال الحياة والميراث السماوي الذي نراه سرّياً في سِرّ الشكر الفائق، والذي فيه يُوَحِّدُنا الروح القدس بالمسيح إلهنا لكي نصير واحداً معه بغير افتراق.

الخطيةُ عاجزةٌ عن أن تفصلنا عن المسيح:

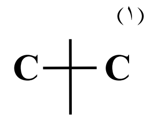
٥٥- أيها الأحباء، أنتم مجد المسيح كما قال الرسول بولس وفخر السموات نفسهـــا لأنكم لَبِستُم المسيح وصِرتم الآن عن يمين الآب مع الغالب.

٥٦- توجد خطيةٌ واحدةٌ للموت، وهي خطية الارتداد عن الإيمان والكفر بدم المسيح الذي خَلَّصنـــا بموته. هذه الخطية تنقل المؤمن الحي مِن الحيـــاة إلى الموت. أمَّا باقي الخطايا فهي عاجزةٌ عن أن تفصلنا عن محبة الله، بل بالتوبـــة والاعتراف والصلاة والصوم العقلي والجسداني نعود إلى مجد المسيح، بـــل حتى إن الذين إرتدوا عن الإيمان إذا طلبوا التوبة والعودة، فإن الكنيسة تقبل هؤلاء متشبهةً بالمسيح يسوع ربنا الذي قَبِلَ بطـــرس الذي لَعَنَ الربَ وأنكره أمام الجاريـــة. أما مَن يسقط في بئر اليـــأس مثـــل يهوذا الذي بـــاع سيـــدهُ وسقط في نفس خطية بطرس، فإنه يهلك بسبب عدم محبته، ولأن عدم المحبة قاده إلى الهلاك.

٥٧- وقد وضَعَتْ البيعـــة الأرثوذكسية عدة قوانين للتوبة وعودة المرتدين وهي كلها معروفةٌ لمن يقرأ مجموع القوانين التي وضعهـــا الآباء والمجامع المسكونية المقدسة.

٥٨- أخيراً أسألكم الصلاة عني ومعي لكي أنال المجد الذي حَفِظَهُ لنا الربَ بموته وقيامته وختمه بختم الروح القدس المحييّ.

صفرونيوس يسأل بركة صلواتكم.



(١) نقلاً عن المخطوطة وهي الرسالة الوحيدة التي وضع فيها الكاتب الحرف الأول والحرف الأخير من اسمه وبينهما صليب.